أطاريح:

"مكانة الحلم في منظومة الظواهر النفسية دراسة نفسية أنثربولوجية"

للدكتورة: جميلة ملوكي

ناقشت الباحثة جميلة ملوكي برحاب كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بجامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان رسالة علمية لنيل الدكتوراه، في موضوع: "مكانة الحلم في منظومة الظواهر النفسية، دراسة نفسية أنثربولوجية"، تحت إشراف الأستاذ الدكتور: سعيدي محمد، بالموسم الدراسي 1434-1435 هـ- 2013-2014م، نقدم فيما يلي تقريرا يلخص أهم مباحثها:

لعل من أقدم الظواهر العقلية والنفسية المرتبطة بحياة الإنسان ظاهرة الأحلام، فهناك من البيانات التاريخية ما يؤكد على أنها استحوذت على اهتمام وتفكير الإنسان وأشغلته بمحاولات التفسير والتأويل، وبأنها كانت ذات أثر كبير في توجيه سلوكياته وحياته النفسية ومسيرته الحياتية.

وقد تعددت الآراء بقدر ما تنوعت: رسائل من الآلهة، آثار هضم عسير، رؤى مستقبلية، صور غير مترابطة مأخوذة من الحياة اليومية ومشوَهة بلا أي معنى، انعكاسات تخيُلية تنتج عن الضجيج...

ولكن في كل هذه الآراء هناك فكرة راسخة لدى كل الاتجاهات وهي أن الأحلام ذات أهمية وتنطوي على معنى إذا ما حاولنا فهمها وترجمتها،

هذه الاتجاهات المختلفة نحو الأحلام والانطباعات السائدة عنها، كانت موجودة ومنذ القدم، وقد فكرت فيها مختلف الشعوب وحاولت فهمها وتأويلها حسب ما وفرته لها بيئتها الاجتماعية والطبيعية والثقافية.

وقد كرس الكثيرون أنفسهم لدراسة ظاهرة الحلم : منهم العرافون في القرن الثاني قبل الميلاد، ومنهم العلماء والكهنة وأيضا الأطباء والفلاسفة وعلماء الدين وعلماء النفس والإجتماع والأنثروبولوجيا ... ولم يمر أي فكر عميق مرور الكرام حول هذا الموضوع إلا وترك محاولات كثيرة وجهود معتبرة لفهم لغة الحلم وفهم صوره ورموزه التعبيرية.

ورغم هذه الجهود مازلنا نجهل ما هو الحلم ؟ إننا نعرف صفاته وفعاليته ولكن لا نعرف على النحو الصحيح هذا النسيج المدهش، المصنوع من الذكريات الشخصية ومن مختلف الرموز، ومن تماوج الصور المليئة بالتناقضات الظاهرة والجماليات المدهشة.

وقد يتجاوز سؤالنا- ما هو الحلم - معطيات عصرنا ونتساءل عن ما الذي يتضمنه الحلم، وما معناه؟ والحق أنه ليس ثمة سؤال أكثر إثارة من "ما معنى حلمي؟"، خاصة وأنّ هناك الكثير من الأحلام التي تجعلنا نستغرق في الضيق والقلق، أو تكون لياليا حافلة بأنواع من الكوابيس، حيث نستيقظ أثناءها ومِلْؤنا الامتنان لتلك اليقظة التي خلصتنا من شر ما كنّا نراه ونخاطب أنفسنا حينها قائلين "ما هو إلا حلم".

أو نعيش حلما فيه لذة أثناء النوم واليقظة ونتمنى حينها لو لم نستيقظ من نومنا لمتعة حلمنا.

ولمناقشة هذا الموضوع ارتأينا تقديم رؤية علمية نعالج فيها هذه الظاهرة من جوانبها المتعددة، سواء باعتبارها حالة خاصة من النشاط النفسي أو باعتبارها انعكاسا لأسلوب معيشة الأفراد وأنماط تفكيرهم وعلاقاتهم الاجتماعية وأدوارهم المهنية ومراتبهم العمرية.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج النفسي الأنثروبولوجي وعلى تقنياته لجمع المادة العلمية، والتي أهمها:

1-**الملاحظة**: والتي اعتمدنا عليها أثناء إجراء المقابلة.

أما **المقابلة**: فقد قسمناها إلى أربعة أقسام

القسم الأول من هذه المقابلة خصصناه لجمع مادة الأحلام.

في حين **القسم الثاني** كان لفئة المفسرين الشعبيين الذين يتميزون بخبرة في ميدان تأويل وتفسير الأحلام وكانوا من مناطق مختلفة من مجتمع البحث .

و قد خصّ **القسم الثالث** من هذه المقابلة حالات معينة من المجتمع **كالمتصوفة** وبعض الحالات التي تعاني من اضطرابات نفسية أو عقلية، وحالات أخرى تعاني من مشاكل إجتماعية أو أسرية كالطلاق....

أما **القسم الرابع والأخير** من هذه المقابلة فقد كان مع فئة المسنين وكان عبارة عن دراسة مقارنة بين محتوى أحلام مسنين بمراكز الرعاية، ومحتوى أحلام مسنين ذوي أسر طبيعية.

- أما الأداة الثالثة من أدوات البحث العلمي فهي :

3- **الاستمارة**: والتي تم الاعتماد عليها في جمع الحقائق الخاصة بهذه الظاهرة وتسجيلها وجمعها في صورة قياسية وتلخيصها بطريقة يسهل بها معرفة آراء واتجاهات الأشخاص تجاه هذه الظاهرة، وقد تم تقسيم هذه الاستمارة وتوجيهها إلى ثلاث فئات من المجتمع وهي:

***الاستمارة الأولى** : خاصة بثقافة الحلم في الوسط الجامعي حيث قسمت هذه الاستمارة على تخصصين، وهما قسم علم النفس وقسم علوم الشريعة الإسلامية.

***أما الاستمارة الثانية** : فقد كانت مخصصة للأسرة ووُزعت بين أسر في المدينة وأخرى في الريف .

*وخصّصت **الاستمارة الثالثة**: لفئة العمال،حيث شملت مختلف القطاعات المهنية

4- **دراسة حالة**:

قمنا أثناء تحليلنا لبعض المعطيات النظرية بإدراج تقنية دراسة حالات من الأحلام والتي كانت تخص نوع الكوابيس أو أحلام الرعب وغيرها.

5-**وسيلة التسجيل الصوتي**:

حيث تم الاستعانة بجهاز التسجيل الصوتي لتسجيل مادة الأحلام بنفس اللهجة التي ذُكر بها، وتسجيل تفاسير المؤولين الشعبيين للأحلام التي ذكرت وآرائهم في الحلم وشروط التفسير والمفسرين، وهي وسيلة هامة جعلت الباحثة تجمع أكبر قدر من المعلومات من مجتمع البحث والمحافظة على معانيها.

وقد استندنا في ذلك إلى منهجية علمية في تحديد موضوع بحثنا والذي وسمناه بـ"مكانة الحلم في منظومة الظواهر النفسية..".

وفي هذا الإطار فإننا قد بدأنا عملنا هذا **بمدخل** تمهيدي، وهو عبارة عن فصل أقرب منه لتأصيل المفاهيم المستخدمة لهذا المصطلح عبر تخصصات علمية ورؤى مختلفة لهذا العلم - علم الأحلام –.

حيث ناقشنا فيه موضوع" ما هو الحلم"و ارتأينا أن نتفحص فيه مختلف الثقافات في نظرتها لهذه الظاهرة، والتي بدأناها بالتعريف اللغوي للحلم، ثم انتقلنا لدراسة هذه الظاهرة عند القدماء ومختلف الحضارات، لننتهي بعرض مختلف أراء العلماء حول موضوع الأحلام بدءًا برجال الدين، إلى علماء النفس والإجتماع ثم أخيرا علماء الأنثروبولوجيا.

عالجنا **بالفصل الأول** الأحلام من الناحية النفسية التحليلية،حيث تم توضيح الطريقة التي يحدث بها وفق النظريات العلمية ك- مدرسة التحليل النفسي لفرويد أو السيكولوجية التحليلية ليانغ ومدرسة علم النفس الفردي لآدلر.

وتناولنا في هذا الفصل أهم الخصائص السيكولوجية المميزة للأحلام ومنبهاتها ومصادرها حيث أن الأحلام تأتي بصور مختلفة ومتنوعة، ولعل هذا الاختلاف راجع إلى تعدد مصادرها في تفاعلها مع ذات الحالم لتساهم في الإخراج النفسي لتكوين الحلم.

فبعض الأحلام لها صلة بأحداث اليوم السابق وانطباعات الأحداث الأخيرة التي يمر بها الفرد أو يحدث بها نفسه في اليقظة، فيراها في نومه، وهذه الأحلام قادرة على أن تختار مادتها ومصادرها من أي فترة من فترات الحياة ما دام ثمة خيط فكري يصل بين خبرة يوم الحلم وبين سابقاتها.

ولكن أصحاب المنهج النفسي في تحليلهم للأحلام وعلى رأسهم 'سيغموند فرويد' يجزمون بعد دراستهم لهذه الظاهرة أنه يمكن تمييز عدة منبهات والتي تعد بمثابة مصادر للحلم وهي كما ذكرناها:

المنبهات الحسية الخارجية أو الموضوعية.

المنبهات الحسية الداخلية أو الذاتية.

المنبهات الجسمية الباطنية أو العضوية.

مصادر نفسية خاصة للتنبيه.

من جهة أخرى للحلم عدة أوجه: حيث يمكن أن يظهر بصورة من الصور التالية :

أ- أحلام واقعية : وهي بمثابة المنجم الذهبي للكثير من المعلومات والأفكار الأصلية لأنها تتصل بصميم حياتنا اليومية .

ب- أحلام تذكيرية : وتأتي لسببين، الأول للتذكير بالمشكلات أو الأزمات التي حدثت في الماضي وما ترتب عليها من تأثيرات وانعكاسات على شخصية الإنسان ولم يتم التعامل معها بالشكل المطلوب.

أمّا الثاني فللحاجة الملحة لتغيير بعض الأنماط السلوكية والتصرفات التي نمارسها في حياتنا اليومية لما لها من تأثيرات سلبية.

ج – أحلام رمزية : وهذه التعبيرات هي مجرد عناوين ظاهرية للمشاعر الداخلية للفرد، فالشعور بالإحباط لدى الطفل على سبيل المثال قد يظهر أثناء النوم على شكل أحلام رعب ولفهم معنى ذلك لابد من دراسة العوامل المحيطة والمتسببة في ذلك.

د –أحلام تبصيرية أو تنبؤية : حيث تجدنا نتعامل مع هذا الوجه من الأحلام بحذر لما يظهر فيه من أحداث تبدو للوهلة الأولى مخيفة أو غريبة، وكلما استرجعناها ينْتابُنا شعور غريب، وقد تحمل أحلامنا في أحيان كثيرة أمورا تنبؤية وليس بالغريب، ولكن ليست كلها تنطوي على بعد مستقبلي أو تحمل إشارات لما يمكن أن يحدث في المستقبل .

هـ –أحلام مشتركة : فكثيرا ما نجد شخصان أو أكثر يشتركان في نفس الحلم بحيث تظهر نفس المشاهد والأحداث والصور من غير تخطيط مسبق.

من جهة أخرى حاولنا بحث الصلة بين الحلم وحياة اليقظة وبين الحلم واللاشعور، حيث وجدناه طريقا معبدا يوصلنا إلى اللاشعور من جهة، ومن جهة أخرى يعرفنا عن الوعي الإنساني في مختلف الامتدادات التي تقتضيها متطلبات حياته .

ثمة انشغال آخر مثل هاجسا لنا بهذه الدراسة كان لابد من البحث فيه وهو لماذا يستيقظ بعض الناس وفي أذهانهم حلم ما؟، في حين يدعي آخرون أنهم لا يحلمون أو لم يستطيعوا تذكر حلمهم؟

أما **الفصل الثاني** فقد تم التركيز فيه على نوع خاص من الأحلام وهي الكوابيس أو الأحلام المزعجة،، وهذا النوع من الأحلام يفزع الإنسان ولا يستطيع منه الفرار أثناء نومه إلا بالاستيقاظ الذي يصاحبه دوما الخوف والرعب والفزع وأحيانا كثيرة البكاء، ويلي هذا الاستيقاظ مباشرة تذكر الحلم بالتفصيل، كما قد يتكرر هذا الحلم المزعج على نفس الصورة التي جاء عليها في البداية، أو يختلف .

ولأن هذا النوع من الأحلام يشعر الفرد بانفعالات سلبية شديدة، واختناق قد لا يستطيع فيه الحالم التخلص أو الفرار منه، فإنه ثمة أسئلة صاحبتنا خلال هذا الفصل لمعرفة حقيقة الكابوس وهي:

ما هي الأسباب المؤدية للكوابيس ولماذا تتكرر؟
وما هو دور المنبهات الخارجية والاضطرابات النفسية والاجتماعية على ظهورها؟
وهل يمكن أن نقضي عليها ونتخلص منها؟
وختمنا فصلنا هذا بتحليل نفسي لأحلام من هذا النوع

أما **الفصل الثالث**: فقد خصصناه لدراسة علاقة الأحلام ببعض الأمراض والحالات النفسية، حيث بدأنا بعرض نظريات وأراء قديمة حول الأحلام والأمراض، ثم عرجنا إلى العلاقة بين الأحلام والأمراض الجسمية، إذ أن أعضاءنا يمكنها أن تكون في حالة التهيج أو المرض مصدرا للأحلام.

وركزنا دراستنا في هذا الفصل عن العلاقة بين الأحلام والأمراض النفسية، والتي تعتبر بمثابة الباب الملكي لقراءة وفهم الكثير مما يدور في عالم الأحلام،بل ما يدور في تلك الأحلام يعبر عن نوع الاضطراب الذي تعاني منه تلك الشخصية، وهو ما يجعلنا نستعين بها كوسيلة لتشخيص بعض الأمراض النفسية وحتى العقلية . ويقودنا الحديث عن التشخيص لمقاربة سبل العلاج،حيث يعتبر تفسير الأحلام من القواعد النفسية في المعالجة النفسية .

وفي آخر عنصر من هذا الفصل حللنا حقيقة الرؤيا (وهي نوع خاص من الأحلام) في التجربة الصوفية ونظرنا في كيفية استعمالها كتقنية للبحث عن المعرفة والتواصل والاستمرارية بحيث من خلالها يتم إدراك ما يقع في الغيب واستكشاف عالم الخوارق.

وقد رأينا أن تكون الفصول المتبقية ميدانية أي الفصل الرابع والخامس السادس.

فالفصل الرابع جاء فيه التفسير الشعبي للأحلام،إذ تعتبر من المعتقدات المنتشرة بين أفراد المجتمع، وهي تفرض نفسها بقوة، حيث أنها مرتبطة بخاصية بيولوجية هامة للإنسان وهي النوم، كما أنها تستمد قوتها وسلطتها من خلال تكرارها اليومي بالنسبة لكل الأشخاص على اختلاف ظروفهم العمرية والجنسية والتعليمية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية ...الخ، فهي سمة مميزة لكل البشر، إلا أنه هناك اختلافات ثقافية كبيرة تجاه المعتقدات التي تدور حول الأحلام، والوظائف التي تؤديها سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

ومجتمع البحث (مدينة - تلمسان- الجزائرية) بصفته مجتمعا عربيا مسلما يتميز بخصوصيات ثقافية لا تخرج عن المجتمعات العربية الأخرى، وعلى الرغم من وجود عموميات ثقافية تجمع كل أفراد هذا المجتمع، إلا أن هناك اختلافات بين أعضائه سواء من الناحية العمرية أو الجنسية أو المهنية أو التعليمية أو الطبقية أو الصحية أو الدينية ...، وكل ذلك انعكس على معتقداتهم وتصوراتهم التي تدور حول الأحلام، من حيث طبيعتها وفائدتها ووظيفتها، وعلاقتها بمختلف النشاطات اليومية وكذا الأجواء النفسية والتنبؤات المستقبلية.

ولهذه الاعتبارات حاولنا تناول هذا الموضوع بنوع من التفصيل، ومحاولة الوصول إلى تحقيق الأهداف التي انطلقت منها هذه الدراسة، حيث قمنا باختيار مجموعة من المفسرين

لتوضيح معنى هذه الظاهرة وأقسامها وطرق تفسيرها وشروط التفسير وفق مجتمع البحث. وقد جاء هذا العمل وفق المنهجية التالية :

- التعريف بمجتمع البحث وخصوصياته.
- طبيعة الأحلام في الوسط الشعبي.
- أنواع الأحلام في الوسط الشعبي.
- الشروط التي يتطلبها التفكير الشعبي في الحلم حتى يكون قابلا للتفسير.
- شروط وطرق تفسير الأحلام في المعتقد الشعبي.

أما الفصل الخامس فقد تناولنا فيه الوظيفة **الإجتماعية والثقافية** للحلم.

حيث حاولنا من خلال هذا الفصل توظيف مجموعة من الأسئلة للاطلاع على مكانة الحلم عند مختلف المستويات الاجتماعية، وما تمثله في نظر كل فئة.

وقد خصصنا لذلك مجموعة من الاستمارات، حيث أن كل استمارة وجهت إلى فئة معينة من المجتمع وهي في مجملها ثلاث:

* **فقد جاءت الاستمارة الأولى** موجهة إلى الأسرة، حيث وزع جزء منها على أسر بالمدينة والجزء الآخر على أسر متواجدة بالريف، وذلك بهدف دراسة ما إذا كان للبيئة المحيطة، ونوع الثقافة، تأثير على محتوى الأحلام، كما جاءت من أجل التعرف على الدور الذي تلعبه هذه الظاهرة في كلتا الأسرتين، وما مدى الاعتقاد فيها.

* **أما الاستمارة الثانية** فقد خصصناها للطلاب الجامعيين، حيث قمنا بتوزيع الاستمارة في كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية على تخصصين، وهما تخصص علم النفس وتخصص علوم الشريعة الإسلامية، وكان الهدف من ذلك هو معرفة إذا ما كان التخصص المدروس يؤثر على معنى الحلم عند صاحبه، كما قمنا من خلال الاستمارة بالتعرف على الدور الذي تلعبه هذه الأخيرة (أي الأحلام) عند كل تخصص، والفائدة منها.

* **أما الاستمارة الثالثة فقد** وجهناها للفئة العاملة، والتي اشتملت مختلف القطاعات المهنية، وكان الهدف العام من وراء هذا العمل والذي شملت في عموميته مهن من مختلف المستويات والقطاعات، هو التعرف على ما إذا كان الحلم محل اهتمام هذه الطبقات المهنية المتنوعة، كما سعينا إلى محاولة الكشف عما إذا كان للحلم علاقة بنوعية المهنة الممارسة من خلال ما يظهر من صور ورموز في أحلام هذه الفئة.

وجاء **الفصل السادس والأخير** لدراسة الوظيفة **الدينية والنفسية** للحلم، وفيه تناولنا وظيفة الحلم في مجال العبادة، أي أننا تحدثنا عن رؤى الأنبياء والرسل، ثم عند الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين والصالحين والمتصوفة.

وفيما يرتبط بالوظيفة النفسية للحلم قمنا بجمع وتحليل محتوى أحلام بعض المسنين، وحالات من النساء المطلقات، وبعض الحالات التي تعاني من الاكتئاب النفسي ...، وخلصنا إلى نتائج هامة، هي :

أن الحلم ليس أمرا مستقلا عن سائر أحوال النفس في يقظتها، بل هو يتصل بها أوثق الاتصال ويكوّن حلقة من حلقات الحياة النفسية، ومن الأهمية العظمى للأحلام أنها تعبر عن أمور لا يسعنا حتى مجرد الإحساس بها أثناء اليقظة وتحيطنا بما عفا عليه الزمن من أحداث، فمنها الخبرات الأولى التي يبعثها أمام ناظرنا فتتضح لنا الصلة بين ماضي الإنسان وحاضره حتى يمكن القول أن الأحلام هي الطريق الأمثل لاكتشاف النفس البشرية.

والأحلام هي ظاهرة طبيعية عند الإنسان تماما كالتنفس والحاجة إلى الطعام ووجودها عنده يدل على سلامته النفسية والجسمية، ويتمثل دورها أساسا في تحقيق التوازن النفسي، إذ هي عامل استقرار وتهدئة إزاء الكبت الذي يواجهه الإنسان في واقعه، أو هي حلول للهواجس التي تنتاب الإنسان فيجد حلا لمشاكله على الأقل في أثناء النوم.

هذه النتائج التي ذكرت والتي توصلنا إليها عن ظاهرة الأحلام قمنا بتحليلها ودراستها بل إثباتها من خلال الفصول الميدانية والبحث على العينة المدروسة، كما ساهم بحثنا ومن خلال احتكاكنا بمجتمع البحث في توضيح بعض المفاهيم الخاصة بالأحلام لدى العوام من الناس، وتوضيح العلاقات بين محتوى الأحلام والظروف الاجتماعية المختلفة للحالمين سواء من ناحية السن أو الجنس أو المهنة أو التعليم أو درجة التدين....

وكان لهذا الأخير أي مجتمع البحث دور كبير كذلك في إثراء محتوى عملنا بحيث ورغم الصعوبات التي يتلقاها كل باحث في مجال البحث الميداني إلا أننا خلال المقابلات وجمع وتحليل الاستمارات ومعايشة بعض الأحداث كالنساء المطلقات مثلا أو عالم الشيخوخة أو عالم الصوفية...وغيرها من فئات مجتمع البحث، فقد أعطتنا دافعا قويا وحافزا كبيرا، بل أفكارا كانت تغيب عنا في توجيه خطة البحث الميداني، كما لا ننكر أنه ومن خلال العمل الذي شمل دراسة ظاهرة إنسانية يتميز كل إنسان بها منذ ولادته حتى وفاته، سمحت لنا بمعرفة ورؤية الإنسان من نفس الزاوية التي رآه فيها ابن عربي في مخاطبته للإنسان:

دواؤك منك وما تُـــــبصر && وداؤك فـــــيك وما تشعر
وتحسب نفسك جرما صغيرا && وفيك انطوى العالم الأكبر